رضوان الفجري

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة ابن طفيل- القنيطرة

redouane.fajri@uit.ac.ma

المعرفة والسلطة عند ميشيل فوكو

ملخص:

نحاول من خلال هذه المقالة دراسة موضوعين مهمين شكلا معا حجر الزاوية في فكر ميشيل فوكو، وهما موضوعي المعرفة والسلطة، اللذين خصص لهما فوكو حيزا كبيرا في أبحاثه وكتاباته. ولهذا الغرض سنحاول أولاً؛ التطرق إلى دلالة المعرفة عند فوكو، وثانيا؛ فحص مفهوم السلطة مع النظر في العلاقة الجدلية التي تربطه بالمعرفة.

كلمات مفتاحية: السلطة، المعرفة، الخطاب، السلطة الحيوية، العلاقة.

مقدمة:

يمكن القول إن فلسفة ميشيل فوكو قد ساهمت في زعزعة الكثير من نقاط الارتكاز الراسخة وفي توضيح الكثير من الالتباسات، لاسيما في مجالي المعرفة والسلطة، نظرا لتشعب العلاقات وتداخل السياقات بينهما، ذلك أن المعرفة والسلطة تؤطران حياتنا، وتحددان نمط تفكيرنا، نحن الذين نصطدم بهما في أبسط حقائقنا. وإذا كان ذلك كذلك، فإنه لا مناص من طرح الأسئلة الآتية: **ماذا يقصد فوكو بالمعرفة؟ وكيف ينظر إلى السلطة؟ وما هي الآليات والتقنيات التي تعتمدها السلطة وتُمارس من خلالها؟ وكيف تكون العلاقة بين السلطة والمعرفة؟**

أولا: المعرفة عند فوكو

يُعرِّف فوكو مفهوم المعرفة في كتابه "حفريات المعرفة"، على النحو الآتي: "المعرفة هي ما نستطيع أن نتحدث عنه داخل ممارسة خطابية(...)إنها الميدان المكون من مختلف الموضوعات التي قد تحصل أو لا تحصل العلمية. المعرفة هي كذلك، ذلك الفضاء الذي يمكن للذات أن تحتل فيه موقعا تتكلم من خلاله عن موضوعات اهتمامها داخل خطاب معين(...)غير أنه لا وجود لمعرفة بدون ممارسة خطابية محددة، فكل ممارسة خطابية تتحدد بالمعرفة التي تكونها[1]".

يرى فوكو أنه ليس ثمة شيء قبل المعرفة ولا خلفها، بل "إن المعرفة مزدوجة ازدواجاً يتعذر تقليصه أو اختزاله، إنها كلام ورؤية، لغة ورؤية، وذلك هو السبب الذي من أجله ليست ثمة قصدية"[2]. وهو ما يعني أن المعرفة ترتبط بما يرى وبما يعبر عنه، لأنها تتكون من مجالين اثنين هما الرؤية والكلام (اللغة). إن العناصر الوحيدة المكونة للمعرفة هي العبارات بوصفها ممارسات خطابية، والرؤى بوصفها ممارسات غير خطابية، يعتبرهما فوكو شكلي خارجية برانية، ذلك أن القول بالخارج هو موضوع محوري ثابت لدى فوكو، إذ يرى أن التفكير ليس ممارسة فطرية تطلع بها ملكة عقلية، بل يطرأ على الفكر من الخارج.

أما بخصوص العلاقة بين المعرفة والعلم، فيرى فوكو أن المعرفة لا يمكن اختزالها في العلم، فهي مرتبطة بجميع العتبات والمجالات، ومرتبطة أيضا بالتجربة الإدراكية وبالمخيال وأفكار العصر ومعطياته. بل إن العلم في نظره ليس سوى تكدس واحد من تكدسات المعرفة. ذلك أن المعرفة لا توجد إلا في ارتباط بعتبات مختلفة ومتباينة أشد التباين. ولعل ذلك ما جعل فوكو يقول:

---

[1] –ميشيل فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي،2005، ص 168.

[2] –جيل دولوز، المعرفة والسلطة، مدخل لقراءة فوكو، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي،الطبعة الأولى، بيروت،1987، ص 119.

«ليست المعرفة تلك الورشة الأبستمولوجيا التي تختفي بمجرد ما يكتمل العلم، الذي يتطلب بناؤه وجودها، بل إن العلم يتخذ موقعه داخل حقل المعرفة حيث يلعب دوره، الذي يتغير حسب تغير التشكيلات الخطابية وينقلب بانقلابها"[3]. ومنه فإن المعرفة لا تحدد انطلاقا من علميتها أو عدم علميتها، ما دام أن العلم نفسه لا يشكل إلا جزءًا من الفضاء المعرفي. ذلك أن المعرفة لا تستند على التجارب والبراهين فقط، بل إنها تستند حتى على التخيلات والتأملات والحكايات والقوانين الإدارية والقرارات السياسية. ويذهب فوكو إلى القول إن المعرفة تضع العلم والشعر في نفس الخانة، من حيث كونهما يمثلان معرفة ما ولا تُفَاضِلُ بينهما.

يرى ميشيل فوكو أن خاصية المعرفة لا تكمن في الرؤية ولا في البرهان، وإنما تكمن في التأويل، حيث "إن العالم مغطى بشارات يجب فك رموزها(...) لذا فأن تَعرف معناه أن تؤول: أي أن تذهب من العلامة المرئية إلى ما يقال عبرها، ويبقى بدونها، كلمة خرساء نائمة داخل الأشياء"[4]. أما فيما يخص حياد المعرفة، يرى فوكو أن المعرفة غير محايدة ولا شفافة، ذلك "**إن المعرفة لم تخلق لأجل الفهم و إنما للتكسير والحسم**"[5]، وهو ما يعني أن القول بحيادها مجرد وهم. وحجته في ذلك؛ أنه بداخل المعرفة تتفاعل وتتصارع أهواء ورغبات ومصالح وعلاقات قوى. ذلك أن هدف المعرفة ليس هو البحث عن معنى خفي، وعن ذات متسيدة، وعن وثيرة تطور مستمر وعن تجلٍ تدريجي لحقيقة كائنة في المستقبل، أو تراجعا نحو حقيقة كائنة في أصل منسي. لهذا ينبهنا فوكو إلى أنه لا ينبغي لنا الاعتقاد بأن العالم يبدي لنا وجها مقروءًا وما علينا إلا مطالعته لفك رموزه، إذ "ليس العالم في حال تواطؤ مع معرفتنا وليست هناك عناية استدلالية مسبقة تهيئه لنا، ينبغي أن ندرك

---

[3] ميشيل فوكو، حفريات المعرفة، مصدر سبق ذكره، ص170.

[4] –ميشيل فوكو، الكلمات والأشياء ترجمة: مطاع صفدي، سالم يفوت، بدر الدين عرودكي، جورج أبي صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1989، ص،50.

[5] ميشيل فوكو، نيتشه الجينالوجيا والتاريخ، ترجمة أحمد السطاتي وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر المغرب، 1988، ص 59.

أن الخطاب عنف نوقعه بالأشياء، وممارسة نفرضها على الأشياء، وفي إطار هذه الممارسة وحسب تجد حوادث الخطاب مبدأ إطرادها".[6]

ويرى فوكو أنه لا وجود لمعرفة بدون ممارسة خطابية محددة لها، وبمقتضى ذلك سيكون للخطاب الدور الأبرز في بناء المعرفة، ومنه تبرز أهمية تملكه والسيطرة عليه وتوجيهه حسب الرغبات والمصالح. بالتالي سيغدو الخطاب موضوع صراع سياسي، وهنا سيطرح سؤال السلطة والارتباط والتأثير المتبادل بينها وبين المعرفة بوصفها خطابا، حيث سيصعب الفصل بين المعرفة بوصفها سلطة، والسلطة بوصفها معرفة في لعبة تبادل الأدوار بينهما.

ثانيا: السلطة عند فوكو

في تناوله لمفهوم السلطة، لا يهتم فوكو بالبحث عن أصل السلطة أو أسبابها، وهو المعروف عنه انتقاده لأفكار الأصل، وهذا التخلي عن البحث في الأصل، هو في نفس الآن تخلٍ عن البحث في ماهية وجوهر السلطة. ولمّا كان فوكو يتجنب استجواب ماهية السلطة، فإنه يوجه بحثه إلى تحليل ووصف مفاعيلها ونتائجها، وكيفية ممارستها. إذ يرى فوكو أن الاهتمام بالماهية والمصدر، يفوت علينا الالتفات إلى الوقائع الصغرى التافهة، ولكن المعقدة في كيفية ممارسة السلطة، إن المقصود بسؤال "الكيف"، ليس كيف تظهر السلطة بل كيف تمارس؟ وكيف يحدث الأمر عندما يمارس أفراد سلطتهم على آخرين؟ يقول فوكو: "إن السلطة ليست شيئا يُحصل عليه ويُنتزع أو يُقتسم، وليست شيئا نحتكره أو ندعه يفلت من بين أيدينا، إنها تمارس انطلاقا من نقاط لا حصر لها، وفي خضم علاقات متحركة لا متكافئة"[7]. لقد أشار فوكو إلى هذا الطابع العلائقي للسلطة خصوصا في كتابه "المراقبة والعقاب"، حين تحدث عن البحث "الميكروفزيائي" للسلطة، أي عن

[6] ميشيل فوكو، جينالوجيا المعرفة، ترجمة أحمد السطاتي وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء،1988، ص 29.

[7] –Michel Foucault, l'archéologie de savoir, Gallimard, Paris, 1969, p.123.

لعبة الأجساد والمؤسسات، والمواقع والتقنيات، وشبكة العلاقات المتحولة والصراعات المستديمة، وأيضا عن أشكال الاستثمار والتغلغل في عمق النسيج الاجتماعي الذي يمنع فهم السلطة كمجرد علاقة بين دولة مهيمنة ومواطنين خاضعين، أو اختزال السلطة إلى مجرد هيمنة طبقية، ذلك أن الطبقة ذاتها-في نظر فوكو–لا يمكن أن تهيمن إلا إذا تشكلت بوصفها طبقة، وهو ما يفترض آليات سلطوية تمارسها على مجموع أفرادها. وفي هذا الصدد يقول فوكو: "إجمالا ينبغي التسليم بأن السلطة تمارس بدلا من أن تُمتلك، وأنها ليست امتيازا مكتسبا أو دائما للطبقة المهيمنة، بل إنها الأثر العام لمواقعها الإستراتيجية"[8].

ينتقد فوكو مجموعة من المسلمات المرتبطة بالسلطة؛ ولعل أولى المسلمات التي وجه إليه سهام نقده هي "مسلمة المِلكية"، والتي مفادها أن السلطة في ملك طبقة معينة نتيجة الغلبة، إذ يرد فوكو على هذا الطرح قائلا بأن السلطة لا تمارس نفسها بهذا النحو، ولا انطلاقا من ذلك، فهي إستراتيجية أكثر منها مِلكية، إذ لا ترجع آثارها ومفاعيلها إلى تملك ما، بل تعود إلى تدابير وحيل وإلى تقنيات وآليات واستراتيجيات، فهي تمارس أكثر مما تُمتلك. والمسلمة الثانية التي ينتقدها فوكو هي جعل السلطة حكرا على الدولة وأجهزتها التي تمارس وتحتكر "العنف المشروع"، ومن ثمة القول بأن كل سلطة لا تنتمي إلى الدولة، لا تتمتع إلا بانفصال ظاهري عن سلطة الدولة. وعلى خلاف ذلك يؤكد فوكو على أن الدولة نفسها ليست سوى مفعول وأثر للجموع، وليست سوى نتيجة لكثير من الدواليب والبؤر، التي تجد موضعها في مستوى مختلف أتم الاختلاف عن ذلك الذي توجد فيه السلطة، وتمثل من جهتها أساسا لا مرئيا للسلطة.

أما المسلمة الثالثة التي يدعو فوكو إلى التخلي عنها فهي "مسلمة التبعية"، والتي مفادها أن السلطة التي تتجسد من خلال جهاز الدولة هي تابعة لنمط إنتاج معين، يعد بالنسبة إليها بنية

[8]-Michel Foucault, l’archéologie de savoir, p.31.

تحتية. ينتقد فوكو هذا الأمر قائلا إنه من الصعب القول إن الاقتصاد هو الذي يلعب الدور المحدد للسلطة، فحتى لو تم تصور البنية الفوقية مستقلة نوعيا وتتمتع بالقدرة على الفعل أورد الفعل، فإن المعمل أو المصنع هو الذي يفترض آليات السلطة، والتي هي في نظر فوكو آليات تفعل فعلها في الأجساد والنفوس من الداخل وليس من الخارج، وتتخلل الحقل الاقتصادي وقوى وعلاقات الإنتاج، إذ "ليست علاقة السلطة في موقع براني بالنسبة إلى باقي أنواع العلاقات(...) ولا تحتل موقع بنية عليا(...) بل توجد حيثما تلعب مباشرة دورا منتجا"[9].

المسلمة الرابعة التي ينتقدها فوكو هي "مسلمة الجوهر والأعراض"، والتي مفادها أن للسلطة جوهرها، كما أنها عرض يظهر على الذين يملكون زمامها، من خلال تميزهم عن أولئك الذين تمارس عليهم تلك السلطة، خلافا لذلك يؤكد فوكو أنه ليس للسلطة جوهر، بل هي إجرائية، وليست عرضا، بل إنها علاقة، وعلاقة السلطة هي مجموع علاقات القوى التي تخترق القوى الغالبة أكثر من اختراقها للقوى المغلوبة، إذ "تحاصر السلطة المغلوبين وتخترقهم، مرتكزة إليهم بنفس الكيفية التي سيرتكزون هم بدورهم إلى التأثير والسطوة اللذين تمارسهما عليهم في صراعهم ضدها"[10].

المسلمة الخامسة التي ينتقدها فوكو هي "مسلمة أنماط التأثير"، والتي مفادها أن السلطة تتصرف بعنف أو تمارس بوصفها إيديولوجية، فهي تارة تقمع وتارة تموه أو تخدع أو تتخذ شكل دعاية. فعلى العكس من ذلك، يرى فوكو أن السلطة لا تمارس نفسها كإيديولوجية حتى عندما تتسلط على النفوس، ولا تلجأ بالضرورة إلى العنف، ولا تقمع حينما تتسلط على الأجساد، بل الصحيح هو أن العنف مظهر أو أثر للقوة المسلطة على شيء ما، موضوعا كان أو كائنا، وليست تعبيرا عن علاقة السلطة أو مظهر لعلاقة القوة بالقوة، ذلك أن "السلطة تنتج الواقع قبل أن

[9]–Michel Foucault, la volonté de savoir, Gallimard, Paris, 1976 , p.124.

[10] – جيل دولوز، المعرفة والسلطة مدخل لقراءة فوكو، ص34.

تقمع، كما تنتج الحقيقة قبل أن تضفي عليها رداءً إيديولوجيا، وقبل أن تجرد أو تموه"[11]. وهو ما يعني أن فوكو يعتبر أن القمع والإيديولوجيا لا يفسران شيئا، بل يفترضان تنظيما ضمنه يفعلان فعلهما وليس العكس. إذ "لا يجهل فوكو كل شيء عن القمع والإيديولوجيا، بل يعتبرهما في الحقيقة شأنه شأن نيتشه، لا يشكلان معركة القوى، بل ذلك الغبار أو النقع الذي تثيره سنابك الخيل في المعركة"[12].

ونأتي إلى المسلمة السادسة والأخيرة التي ينتقدها فوكو، وهي "مسلمة الشرعية"، ومفادها أن سلطة الدولة تتجلى من خلال القانون. إذ يرى فوكو أنه ينبغي استبدال التقابل غير الدقيق بين القانون واللاشرعية، بتقابل أدق بين النزعات اللاشرعية والقوانين، ذلك أن القانون في نظره هو "تنظيم لنزعات لاشرعية تنظيما يبيح بعضها، يجعله ممكنا أو يقدمه امتيازا للطبقة السائدة وتنظيم كذلك لنزعات لا شرعية يجيزها كتعويض للطبقة المسودة أو يجعلها تخدم مصالح هذه الأخيرة، إنه أخيرا تنظيم لتلك النزعات التي يمنعها ويعزلها، ويتخذها كموضوع أو كوسيلة من وسائل السيطرة"[13]. وهو ما يعني أن النزعات اللاشرعية تسترسل في عملها تحت غطاء الشرعية، ولعل ذلك ما جعل فوكو يؤكد على أن القانون ليس حالة من السلم، ولا حتى حاصل حرب ربحها البعض، بل إنه الحرب نفسها. والقانون في هذا، مثله مثل السلطة، التي ليست ملكا دائما وقارا للطبقة السائدة، بل هي ممارسة فعلية لإستراتيجيتها.

يتبين لنا إذن، أن فوكو ينتقد التصور التقليدي لمفهوم السلطة، والذي لا يتناولها إلا من خلال القانون أو الدولة أو الطبقة، والذي لا يدركها إلا كتعاقد أو هيمنة، أو بوصفها ضرورة اقتضتها طبيعة الإنسان العنيفة "الإنسان ذئب للإنسان"- للحد من حرب الكل ضد الكل كما قال

---

[11]–Michel Foucault, surveiller et punir, Gallimard, 1975, p.196.

[12] – جيل دولوز، المعرفة والسلطة مدخل لقراءة فوكو، ص36.

[13] –المرجع نفسه، ص36.

بذلك توماس هوبز، أو ينظر إلى السلطة بوصفها استلابا تاريخيا، ومن ثمة لا يتم إدراك وفهم السلطة كما تمارس في تعقيدها الاستراتيجي وفي شبكة قواها المتعددة، وفي أشكال توزعها وسبل تداولها، وكذلك نوعية الخطابات التي تتسلل من خلالها السلطة لتنبث في ممارسات وسلوكات الأفراد. إن السلطة في نظر فوكو ليست قوة قسرية قائمة على القمع والإكراه، وإنما هي شبكة علاقات منتجة ومتداخلة تعمل استراتيجيا.

لقد أظهر فوكو عجز الفرضية القمعية والتصور القضائي عن الإحاطة بالآلية الإنتاجية للسلطة، وذلك بسبب إغفال خصائص تاريخية أساسية، أدى تجاهلها إلى خفض السلطة إلى صورة القانون، وهو أمر لا يزال ساريا إلى اليوم في التنظير السياسي، يقول فوكو: "لم نغادر–رغم ادعائنا- مواقع تحليل السلطة بمفاهيم "الحق والعنف والقانون واللاشرعية، والإرادة والحرية، وخاصة الدولة والسيادة"[14]. إذ ما زال يتم إغفال مواقع الفعل وآليات تجسيد وممارسة السلطة. ويرى فوكو أن القانون لم يعد هو النموذج الذي تتم العودة إليه في فهم السلطة، بل سيستعاض عنه بالنموذج الإستراتيجي، وهو النموذج الذي يدرك الطابع الإنتاجي للسلطة وقدرتها الاستثمارية حينما تخترق الأجساد وتنتجها في نفس الآن، وحينما تولد الرغبة وتكون المعرفة وتنتج الخطاب، فتتعدد مفاعيلها وتتنوع ضروب صيغها الحيوية، لأن مقبوليتها ذاتها–في نظر فوكو– مرتبطة بقوتها الإنتاجية. ويرى فوكو أن السلطة لا تؤثر فقط بوصفها قوة تقول لا، بل إنها في الواقع تخترق وتنتج أشياء وتولد متعة، وتبني معرفة وتنتج قولا، لهذا ينبغي اعتبارها كشبكة منتجة تمر عبر الجسم الاجتماعي كله، أكثر من اعتبارها هيئة سلبية وظيفتها القمع. ويذهب فوكو إلى أنه لا يجب فهم السلطة بوصفها ممارسة مؤسسة تتيح لنا فهم العلاقات السلطوية، بل ينبغي فهم السلطة بوصفها تجلٍ وفاعلية وأثر. لهذا ينبغي إدراك السلطة بوصفها ميكانيزمات واستراتيجيات ومجموع علاقات تتيح فهم وتحليل كيفية عمل المؤسسات، وليس العكس. ذلك أن هذه المؤسسات هي ما

[14]-Michel Foucault, la volonté de savoir, p.117.

تنتهي إليه السلطة، وليست هي من يشكل السلطة. وسعيا منه إلى مزيد من الوضوح يقول فوكو: "لا أعني بالسلطة ما دأبنا على تسميته بهذا الاسم، والمقصود بذلك مجموع المؤسسات والأجهزة التي تمكن من إخضاع المواطنين داخل دولة معينة، كما أني لا أقصد نوعا من الإخضاع الذي يتخذ في مقابل العنف صورة قانون، ولست أقصد أخيرا نظاما من الهيمنة يمارسه عنصر على آخر، أو جماعة على أخرى، حيث يسري مفعوله بالتدريج في الجسم الاجتماعي بكامله"[15].

ارتباطا بموضوع السلطة، يرى فوكو أن إحدى الظواهر الأساسية التي شهدها القرن الثامن عشر، هي ما يمكن تسميته بالسلطة الحيوية، والمقصود بها عند فوكو هو اهتمام السلطة بالحياة، أو بتعبير آخر اهتمام السلطة بالإنسان بوصفه كائنا حيا، حيث أصبحت الحياة موضوعا وهدفا. فإذا لم يكن هناك في السابق سوى أشخاص من منظور قانوني، والذين يمكن سلبهم خيراتهم وحياتهم أيضا، فإنه صار يتم النظر إلى الأجساد والسكان، كما أخذت السلطة طابعها المادي وكفت عن أن تكون بالضرورة قانونية، إذ صار مطلوبا منها أن تعالج الأمور الواقعية والمتمثلة في الجسد والحياة، وهكذا أصبحت الحياة تدخل ضمن مجال السلطة. وضمن هذا الإطار أصبح المرض والأوبئة ظاهرة سكانية تأخذها السلطة بالحسبان منذ نهاية القرن الثامن عشر، كما ظهرت اهتمامات معرفية جديدة، وظهر طب اجتماعي له وظيفة كبرى تتمثل في مراقبة وحفظ الصحة العامة، وذلك من خلال تنظيم العلاج والقيام بحملات التلقيح والتوعية وتعليم النظافة وتطبيب السكان، وكذلك الحجر الصحي لتجنب انتقال العدوى للساكنة النشيطة، بالإضافة إلى ظهور وسائل لتحديد النسل بغية التحكم في النمو الديمغرافي وضبط المجال.

ثالثا: تقنيات وآليات السلطة:

[15]-Michel Foucault, la volonté de savoir, p.121.

في تناوله الجديد والفريد لمفهوم السلطة، بوصفها ممارسة وأثر، ومنظومة علاقات متشابكة، كان من الضروري بالنسبة إلى فوكو أن يتطرق إلى آليات واستراتيجيات السلطة بشكل مغاير عن تناول المرجعيات الحديثة للفلسفة السياسية (ميكافيلي هوبز، لوك...)، والتي لم يخرج تناولها لمفهوم السلطة عن إطار مفاهيم من قبيل الدولة، القانون، العقد الاجتماعي والعنف المشروع. وهو ما يقودونا إلى السؤال الآتي: ما هي الإستراتيجيات والآليات التي تلجأ إليها السلطة في نظر فوكو؟

تطرق فوكو في أحد دروسه في "الكوليج دو فرانس" حول السلطة الحيوية، إلى آليات السلطة مفرقا بينها: فمن جهة هناك تقنية انضباطية مركزة على الجسد وتنتج آثارا فردية تحرك الجسد بوصفه مجالا للقوة، وذلك بغرض تحويله إلى جسد مفيد ومطيع، ومن جهة أخرى هناك تقنية ليست مركزة على الجسد، وإنما على الحياة، وهي تقنية خاصة بالسكان، إنها تقنية لا تهدف إلى التطبيع أو ترويض الأفراد، وإنما تبحث عن التوازن العام من خلال المراقبة. إذن هنالك تقنيات خاصة بالأفراد وأجسادهم، وكيفية ترويضها وتطويعها، وتقنيات خاصة بالعمليات البيولوجية للسكان، بمعنى أن هناك آليات انضباطية وآليات تنظيمية للسلطة.

يرى فوكو أنه منذ القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر، كان لسلطة السيادة مخطط تنظيمي، يهدف إلى تفعيل الجسد الاقتصادي والسياسي، لمجتمع مقبل على الانفجار الديموغرافي والصناعي، واعتمدت في ذلك آليات السلطة، المطبقة على الجسد الفردي حتى تتم مراقبته وترويضه، وهي الآلية الانضباطية التي تم تطبيقها بشكل تدريجي ومحدد في المدرسة والمستشفى والثكنة والمعمل...الخ.

رابعا: علاقة السلطة بالمعرفة:

يرى فوكو أن تشكل آلية المعرفة-السلطة كان مرتبطا ومتصلا منذ القرن السابع عشر بالجهاز الإداري للدولة المطلقة، واعتبر أن النبالة فقدت قواها بسبب إهمالها لحلقة مهمة في نظام

السلطة هي المعرفة، ذلك أن هذه القطعة الإستراتيجية التي كانت محتكرة من طرف الكنيسة والقضاء، ومحتكرة لاحقا من طرف البورجوازية والجهاز الإداري. لهذا سعت النبالة في المرحلة الأولى إلى استعادة هذه المعرفة بوصفها هدفا استراتيجيا تم وضعه لاستعادة مكانتها، وهو بمثابة الشرط الأول لكل الانتقامات الممكنة. لقد دعى بولانفيليه "Boulainvilliers"النبالة إلى هذا الأمر في المرحلة الأولى قائلا: «لن تسترجعوا السلطة ما لم تسترجعوا نظام المعارف الذي انتزع منكم، لن تسترجعوا السلطة ما لم تعلموا وتبحثوا وتسعوا إلى امتلاك المعارف لأنكم قاتلتم دائما من دون أن تضعوا في الحسبان أنه ابتداءً من لحظة معينة، فإن المعركة الحقيقية داخل المجتمع لا تتم بالسلاح ولكن بالمعرفة"[16]. وهو الأمر الذي دفع النبالة إلى العمل على إقامة معرفة جديدة تهتم بالتاريخ، وستكون خاصية هذا التاريخ هي الخروج من القانون إلى خلق القانون. وهكذا لن يظل التاريخ كما هو، أي مجموعة من الأحداث الدرامية، ولن يظل التاريخ ما ترويه السلطة عن نفسها. إذ سيبدأ النبلاء في رواية خطاب تاريخي مضاد لخطاب الدولة عن نفسها، وسيعمل هذا الخطاب-كما ذهب إلى ذلك فوكو-على تفجير وظيفة المعرفة التاريخية ذاتها، فقد عملت النبالة على معرفة كيفية اشتغال السلطة، حيث تشكلت عندها وسيلة معينة للنضال والصراع داخل السلطة وضد السلطة، وتتمثل هذه الوسيلة في معرفة جديدة بالتاريخ.

يرى فوكو أن المعرفة لا تحيل أبدا إلى ذات شاردة متحللة من أي ارتباط بالسلطة، كما أن هذه الأخيرة ليست في حل من أي ارتباط بالمعارف التي تتخلل السلطة نفسها حتى تخرج إلى الفعل. وهو ما جعل فوكو يؤكد على أن المعرفة والسلطة يشتغلان كمركب، لهذا يقول فوكو: «ليس هناك أية برانية بين تقنيات المعرفة واستراتيجيات السلطة"[17]. إن علاقات السلطة من منظور فوكو، هي

[16] –ميشيل فوكو، يجب الدفاع عن المجتمع، ترجمة الزواوي بغورة، دار الطليعة، بيروت،2003، ص 162.

[17]–Michel Foucault, la volonté de savoir, p.130.

علاقات فارقية تفاضلية، تحدد فرديات السلطة وقد خرجت إلى الفعل وتحققت، وهو تحقق يضفي عليها طابع الاستقرار. ويرى فوكو من جهة أخرى أن علاقات المعرفة تنصب كلها على مواد حصلت على شكلها وعلى وظائف تقننت، تارة تحت النوع القابل للتأثر بما يرى وأخرى تحت النوع التلقائي لما يعبر عنه. وهذا بالذات ما يجعل المؤسسة قادرة على إدماج علاقات السلطة، وتكوين معارف تخرجها إلى الفعل وتحققها وتنقحها وتوزعها، وتبعا لنوعية المؤسسة المعنية بالأمر، أو تبعا بالأحرى لطبيعة عملها، تبلغ الرؤى من جهة والعبارات من جهة ثانية إلى رؤى وعبارات سياسية أو اقتصادية أو جمالية، حيث أن منحنى العبارة يقوم بدمج شدة التأثيرات والعلاقات التفاضلية للقوى وفرديات السلطة، بحسب ما تسمح به اللغة.

إن علاقات المعرفة عاجزة -في نظر فوكو- عن إدماج شيء من الأشياء ما لم تكن ثمة علاقات تفاضلية للسلطة، وهو ما يؤكد التأثير والتفاعل المتبادل بين علاقات السلطة وعلاقات المعرفة. ذلك أن الرؤية والكلام تحكمهما معا علاقات السلطة، والتي هي علاقات يستلزمانها ويكرسانها في الفعل. فلو أردنا مثلا تحديد متن من الجمل والنصوص لنستخرج منه عبارات، لصعب علينا ذلك ما لم نعين بؤر السلطة والمقاومة التي يخضع لها ذلك المتن. وإذا كانت علاقات السلطة تتضمن علاقات المعرفة، فذلك راجع إلى أن إحداهما تفترض الأخرى، ولما كانت العبارات لا توجد إلا مبعثرة في شكل خارجية برانية، فلأن علاقات السلطة هي ذاتها متناثرة ومتعددة، ومنه يمكن القول إن فهم علاقات السلطة قد يكون معينا على فهم ما تحيل إليه العبارات.

ويذهب فوكو إلى أن المعرفة والسلطة ترتبطان معا بـ"نظام الحقيقة"، ذلك أن الحقيقة ليست خارج السلطة ولا مجردة منها، فالحقيقة من هذا العالم وتنتج فيه بفضل إلزامات عدة، فهي بمثابة مجموعة من الإجراءات المنظمة لإنتاج وتشريع وتوزيع وترويج الملفوظات، كما أنها–أي الحقيقة-مرتبطة بأجهزة سلطة تنتجها وتحميها، وبأفاعيل سلطة تُستنتج منها وتواصلها، وهذا هو

ما يسميه فوكو "بنظام الحقيقة"، كما أن لكل مجتمع نظام حقيقة خاص به، أو بعبارة أخرى سياسته العامة للحقيقة.

إن دخول الإنسان في بنية المعرفة، ليس معزولا عن المجتمع الذي تعبر عنه هذه المعرفة، ذلك أنه من الخطأ الاعتقاد بأن المعرفة لا تظهر إلا حيثما تبطل أو تغيب علاقات القوى، إذ لا وجود لنمط حقيقة لا يحيل إلى نمط من السلطة، ولا وجود لمعرفة أو علم لا يفصح عن سلطة أو لا ينطوي عليها بالفعل، بوصفها سلطة تباشر نفسها من خلاله. وبالرغم من ذلك فلا وجود لشكل مشترك كلي يحكم المعرفة والسلطة، كما لا وجود لتطابق أو تناسب تقابلي بينهما، إن كل ما يجمعهما هو علاقة قوى تعمل بشكل عرضاني.

يرى فوكو في كتابه "إرادة المعرفة" أن العلاقة بين المعرفة والسلطة ليست علاقة خارجية، بمقتضاها توظف السلطة المعرفة وتستعملها بوصفها أداة، بل إن تقنيات المعرفة واستراتيجيات السلطة تعملان كمركب. ومنه يظهر أن فوكو يتجاوز ذلك الفهم التبسيطي الذي يجعل المعرفة في جانب والسلطة في جانب آخر، حيث للأولى عوامل الطهارة والمعقولية، وللثانية ممارسة القهر والعنف.

خاتمة:

بناءً على ما تقدم، يمكن القول إنه إذا كان قوام المعرفة ربط ما يرى بما يعبر عنه، فإن السلطة هي العلة المفترضة لذلك، غير أن السلطة تستلزم بدورها المعرفة كتشعب وتفرع، لأنها لن تخرج إلى الفعل من دونها. ويمكن القول إن تصور فوكو للسلطة يمكن اعتباره نوعا من المعرفة الإستراتيجية الموجهة، ذلك أن السلطة لا تشتغل إلا على نحو معرفة، كما أن سيادة السلطة لا تتحقق سوى عبر معرفة. ولهذا فإن السلطة متواجدة في كل مكان وزمان، نظرا لقدرتها على التوالد في كل لحظة، إذ بمجرد ما تنبع معرفة ما (علمية أو غير علمية)، فإنها لابد من أن تتمظهر في شكل سلطة معينة، فلا وجود لعلاقة سلطة لا ترتبط بنشأة حقل معرفة، ولا وجود لمعرفة لا تفترض علاقات سلطة وتنشئها في الوقت نفسه.

لائحة المراجع:

1. ميشيل فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي ،2005.
2. ميشيل فوكو، يجب الدفاع عن المجتمع، ترجمة الزواوي بغورة، دار الطليعة، بيروت،2003.
3. ميشيل فوكو، الكلمات والأشياء ترجمة: مطاع صفدي، سالم يفوت، بدر الدين عرودكي، جورج أبي صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1989.
4. ميشيل فوكو، نيتشه الجينالوجيا والتاريخ، ترجمة أحمد السطاتي وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر المغرب، 1988.
5. ميشيل فوكو، جينالوجيا المعرفة، ترجمة أحمد السطاتي وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء،1988.
6. جيل دولوز، المعرفة والسلطة، مدخل لقراءة فوكو، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي،الطبعة الأولى، بيروت،1987.

المصادر باللغة الأجنبية:

1. Michel Foucault, l'archéologie de savoir, Gallimard, Paris, 1969.
2. Michel Foucault, la volonté de savoir, Gallimard, Paris, 1976.
3. Michel Foucault, surveiller et punir, Gallimard, 1975.